

نصل إلى القول إن مجال الطفولة، بمختلف الصور البارزة فيه، ينتسج سرديا ضمن فضاءات (القصصية، صفرو، الدار البيضاء، الرباط) تلح الساردة على رسم معالمها وبنائها بصورة واضحة، مع ذكر معطيات أثرية ترمي إلى تثبيت واقعيته من الناحيتين الجغرافية والتاريخية (أصل التسمية، الموقع، البناءات... إلخ). فالفضاء هنا جزء من الذاكرة الطفولية، ومن ثوابت الاستدكار، بل وأحيانا لا يتم هذا الاستدكار إلا في ارتباطه بالفضاء الذي يحيط بالذكريات.

ذاكرة الطفولة

نستفيد مما تقدم أن الماضي، مهبط الكينونة الفردية، هو مجموع الفضاءات التي عبرتها الذات في رحلتها الطويلة بحثا عن هويتها المتفردة. ولذلك نجد في تلك الفضاءات أنوية صغرى متراكبة للذكريات المتجمعة وفق بناء يمكن تسميته بالترحل أو الإنتقال. إنها أنوية صغرى متراكبة لا تستقل عن بعضها إلا في الزمن، لأن ما عيش منها في (القصصية)، على سبيل المثال، لا نجد له معادلا فيما عيش في (صفرو) أو في (الدار البيضاء) أو في (الرباط). وبقدر ما يبدو تراكب هذه الأنوية متصلا، تبرز الذكريات نفسها جارية متطورة. وآية ذلك أن الأنا الساردة، حسب تصور يبدو خطيا بالنسبة لمرحلة الطفولة، تنقل السرد، باعتباره مجموعة من الحكايات المروية أو المنقولة، من مستوى إلى آخر وفق تطورها الذاتي ومعايشتها لهذا التطور حسب حدوثه في الزمن.

تتطور الطفولة إذن من الجهل إلى المعرفة، ومن اللاوعي إلى الوعي بذاتها، ومن بياض الوقائع إلى تشابكها... وهكذا. ولهذا السبب تبدو الفضاءات، من خلال ذلك، وكأنها درجات في تكون الشخصية الطفولية. ويظهر أن مفهوم الترحل أو الانتقال، المشار إليه آنفا، يفيد كثيرا، حسبما تجليه السيرة الذاتية، في التعرف على طبيعة الطفولة المعاشة وعلى النمط الحياتي والشعوري والنفسي الذي كرسه في الذات الفردية. فإذا افترضنا للترحل أو للانتقال مقابلا ندعوه للاستقرار، فمن الممكن أن نلاحظ أن المتغيرات التي يفرضها الفضاء، باعتباره محطة مؤقتة، تبعث في الذات حالتين متناقضتين: أعنى التكيف والأسى. تخبرنا الساردة في كل تجربة انتقالية، إلى فضاء جديد، عن تعلقها بالسابق وأساها لفراق اللاج. كما لو أن الذات تتكون، بفضل سلطة التغيير، في استجابة شرطية مع الدواعي الخارجية. وخلافا للسيرة الذاتية الأخرى المدروسة في هذا القسم، فإن الفرد هنا لا يتأمل ذاته ولا يستبطن ذكرياته، وإنما يعيش حالات متغيرة تنم عن التصدع والانفلات. وهو ما يعكس تعبيريا، على سبيل المثال،